تقديم

الحمدُ لله وحده، وصلى الله وسلم على من لا نبيَّ بعده، وعلى آله وصحبه... وبعد...

فبين يديك رواية «البؤساء» التي كتبها الأديب الفرنسي الكبير «فيكتور هوجو»، والتي عرَّبها ولخصها الشاعر العربي البليغ «حافظ إبراهيم» المعروف بـ«شاعر النيل».

والعجيب أن بين المؤلِّف والمعرِّب صلة، وإن تباعدت الديار، واختلفت الأزمنة، فكلاهما مَعْنيٌّ بالأدب والشعر، وكلاهما بائس!

وهذا ما يدعونا إلى أن نعرِّف بسيرتيهما بصورة موجزة، لنلج بعد ذلك في تعريف «البؤس والبؤساء»، من خلال المعنى والمبنى، مناقشين مع النقاد والمهتمين بالرواية قضية بؤس حافظ إبراهيم، وقضية تعريبه وتلخيصه للرواية والتي دار حولها جدل طويل بسبب اتهامه بأنه كان لا يتقن اللغة الفرنسية، مدللين- من خلال النقاد كذلك - أهمية ما قام به «حافظ» من تعريب وتلخيص بلسان عربي مبين، مرددين مع العقلاء أنه «حين تتوقف حركة النقد تتوقف حركة الإبداع»، وهذا ما لا نرجوه.

التعريف بـ«فيكتور هوجو»

- فيكتور هوجو... أديب وشاعر فرنسي معروف، ولد في شرقي فرنسا سنة 1802م، في منطقة «الدانوب».
- تلقى تعليمه في «باريس»، و«مدريد» بأسبانيا.
- كتب أول مسرحية له وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وحين بلغ سن العشرين نشر أول ديوان من دواوين شعره، ثم نشر أكثر من خمسين رواية خلال حياته منها: رواية «عمال البحر» و«الحب الكبير»، و«مذكرات محكوم عليه بالإعدام»، و«الضاحك الباكي»، و«الملك يلهو» وغيرها.
- **من أقواله:**

- من الممكن مقاومة غزو الجيش ولكن ليس من الممكن مقاومة الأفكار.
- لا قوة كقوة الضمير ولا مجدَ كمجد الذكاء.
- الشرق عالم ساحر وهو جنة الدنيا، وقد وهب الله أرضه زهورًا خاصة.

محطات في حياة حافظ إبراهيم

- ولد «حافظ إبراهيم» سنة 1872م في ذهبية كانت راسية على شاطئ النيل بالقرب من قناطر ديروط حيث كان والده المهندس «إبراهيم فهمي» أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر.
- كانت والدته السيدة «هانم بنت أحمد» من أسرة تركية محافظة عريقة تسكن «حي المغربلين» بالقاهرة.
- عاش في كنف أبيه أربع سنوات، مات بعدها الوالد، فعادت به أمه إلى ديروط، وتولى أمره خاله المهندس «محمد نيازي».
- أدخله خاله المدرسة الخيرية بـ«حي القلعة» بالقاهرة، ثم دخل مدرسة المبتديان، ثم المدرسة الخديوية الثانوية.
- نُقل خاله إلى طنطا مهندسًا للتنظيم، فذهب «حافظ» ووالدته وأخته «عائشة» مَعه، والتحق بمدرسة «طنطا الثانوية»، ولكنه انصرف عن التعليم، وكان يذهب إلى «المسجد الأحمدي»، ليجلس في حلقات الدرس.

- اشتغل في طنطا بمكتب أحد المحامين، وعمل محاميًا بعض الوقت.
- ألحقه زوج أخته «عائشة» وهو ضابط - بالمدرسة الحربية.
- تخرج «حافظ» في المدرسة الحربية سنة 1891م ضابطًا في الجيش، ثم نقل إلى «الشرطة» ثم أعيد إلى الجيش، وخدم في السودان مدة سنتين، إلى أن فصل من الجيش.
- تزوج بعد عودته من السودان سنة 1906م، ولكن زواجه لم يدم أكثر من أربعة شهور، وتوفيت والدته سنة 1908م.
- عين رئيسًا للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية سنة 1911م، وظلّ بها إلى فبراير سنة 1932م حيث أحيل للمعاش.
- كان يعيش مع زوجة خاله التي كانت تدبر بيته وترعى شئونه وقد توفيت قبله بثلاث سنوات.
- طلب له «أحمد حشمت باشا» وزير التعليم «المعارف آنذاك» رتبة البكوية من الدرجة الثانية فأنعم عليه بها سنة 1912م.
- توفى «حافظ إبراهيم» في بيته الصغير بضاحية الزيتون في القاهرة في الساعة الخامسة من صباح الخميس 21 يوليو سنة 1932م.
- كان رحمه الله شاعرًا مجيدًا، وأديبًا فذا، ومحبًا للشعب والناس حتى لقب بـ«شاعر الشعب» و«شاعر النيل».

معنى البؤس

إذا كانت كلمة «البؤس» لم ترد في القرآن الكريم، فقد وردت في السنة المطهرة ودارت على محور المادة، وحملت معنى الفقر والعوَز والمتربة.

فقد روى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بأَنْعَمَ أَهْلِ الدنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يومَ القيَامَة فيصْبغُ في النَّارِ صَبغَةً ثمَّ يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطْ؟ هَلْ مَرَّبك نَعيمٌ قَطْ؟ فيقول: لا والله يا رَبِّ، ويُؤتَى بأَشَدّ الناس بُؤسًا في الدنيا مِنْ أَهْل الجنة فيُصْبَغُ في الجنة صَبْغَةً، فيُقَالُ له: يا ابْنَ آدمْ هل رَأَيتَ بُؤْسًا قَطْ؟ هَلْ مَرَّبكَ شدةٌ قطْ؟ فيقول: لَا والله يا رَبِّ ما مرَّ بي بؤس قَطْ ولا رأيتُ شِدَّةً قط».

فالبؤس إذنْ مسألةٌ مادية بَحْتَة لا تخرجُ عن إطار الفقر والعوز والاحتياجُ والجوع، بشرط أن يشتدَّ ذلك على صاحبه، وهو المعنى الذي تقره اللغة، وكذلك هو الذي يستعمله الناس قديمًا وحديثًا.

والألفاظ التي وردت في القرآن هي لفظة «البائس»، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (الحج:28) وكذلك وردت كلمة «البأساء» في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (البقرة:177) وهي تعني أيضًا الجوع والفاقة والعوز والفقر.

هل كان حافظ من البؤساء؟

بعد أن وضح من معاني البؤس: الفقر، والعوز، والجوع، والحاجة، ناقش النقاد مسألة «بؤس حافظ إبراهيم» لاسيما وأنه بدأ الرواية بأن مؤلفها بائس، ومعربها - ويعني نفسه - بائس وأنه قبل هذا و ذاك أهداها إلى الأستاذ الإمام محمد عبده «مؤئل البائس، ومرجع اليائس...».

فهل كان حافظ إبراهيم من البائسين كما قال؟

بؤس حافظ مُخْتَلَفٌ في معناه بين النقاد والمترجمين لحياته، فبينما يذهب بعضهم إلى بؤس الفقر والمتربة، نظرًا لبعض الفترات التي عاشها سواء في طفولته أو تلك التي عانى فيها بعد فَصْله وطرده من الجيش وبحثه عن وظيفة. بينما يرى آخرون أن حافظًا كان ميسور الحالِ في غالب لحظات حياته، وأنه كان عنده ما يفيض عن حاجته إلا أنه كان لا يدخر شيئًا، ولا يمنعُ أحدًا سأله، فكان من غير المدبرين.

ويدلل هذا الفريق على عدم كون حافظ من «البؤساء» من خلال حديث أقرب المقربين عنده صديقه الحميم «عبد العزيز البشري» الذي يجسد هذا الاتجاه في قوله:

كان «حافظ» أجْود من الريح المرسلة، ولو أنه ادَّخر قسطًا مما أصابت يده من الأموال لكان من أهل الثراء، على أنه ما فتئ طول أيامه يشكو البؤس حتى إذا ما طالت يده «الألف جنيه» جُنَّ جنونه، أو ينفقها في يوم إن استطاع؟! فإذا استغلقت عليه أحيانًا وجوهُ السُبل لإتلاف الأموال عُدَّ ذلك من معاكسة الأقدار».

كما أن أصحاب هذا الاتجاه يستدلون على أن بؤس «حافظ» لم يكن يعني فقره وعوزه لأنه كان يتقاضى راتبًا شهريًا يصل إلى «أربعة جنيهات» وهي في هذا الزمن

تكفي لمجموعة من الأسر أكثر من شهر. بل إنه عندما أحيلَ إلى الاستيداع من الجيش ذهبَ إلى الشاعر الكبير «محمود سامي البارودي» ومدحه بقصيدة دالية وقال له فيها:

أتَيتُ ولى نَفْسٌ أطلتُ جِدَالهَا ... سيقضي عليها كرْبُهَا اليومَ أوغدَا

فإنْ لمْ تُداركها بفضْلٍ فقدْ أتَتْ ... تُودِّعُ مَوْلاهَا وتَسْتَقبلُ الرَّدَي

فلما سمع «البارودي» هذين البيتين بكى بكاءً حارًا، وناشد حافظًا أن يحذف هذين البيتين من القصيدة، ثم نهض من مجلسه، وعادَ إلى «حافظ» فناوله مظروفًا به «أربعونَ جنيهًا ذهبًا».

ولا شك أن «أربعين جنيهًا ذهبيًا» كانت تعد ثروة كبيرة، أضف إلى هذا ما كان يحل عليه من مصادر عديدة من خلال الأسر الكبيرة التي كان على صلة بها مثل «أسرة أباظة» و«أسرة البارودي» و«أسرة محمود سليمان».. و«أسرة خشبة» وغيرهم.

وهذا ما جعل الأستاذ «محمود شوكت التوني» يكتب مقالاً بعنوان «بؤس حافظ» يرفض فيه أن يكون من نوع البؤس المادي من جوع وظمأ، وحاجة إلى المال، ويقرر أنه بؤس النفس الحزينة التي تقصفت فيها الآمال، وعطشت فيها الأماني، بؤس الشاعر الإنساني يتفطر ويبكي لمصاب الإنسانية المتجدد على تجدد الأيام والليالي، بؤسُ المصري يجدُ وطنَهُ يتآكل مجده، وتنحَل أخلاقه...».

والذي دفع الأستاذ «التوني» إلى هذا التفسير لبؤس «حافظ» أنه عندما قررت وزارة المعارف رواية «البؤساء» في مدارسها أعطت حافظًا «ألفين من الجنيهات»، فما كان منه إلا أن أنفقها في شهر واحد، مما جعل الأستاذ «أحمد أمين» يقول: «لو كان حافظ تاجرًا لأضاع رأس ماله في أول شهر ثم أعلن إفلاسه، ولو وضعَ ميزانية دولة لجعل الإنفاق كله في أيامها الأولى ثم لا إنفاق».

فهو بهذا المعنى لا يمكن أن يقرن بطبقة «البؤساء» من أمثال «عبد الحميد الديب»، و«إمام العبد» وغيرهما.

وقفة مع الرواية

«البؤساء» رواية فلسفية دينية تمثل نهوض الإنسان من عثراته بالندم والتوبة بعد طولِ صراع مع النفس، ويمثل هذا الجانب أحد الأبطال وهو «جان فالجان» الذي زُج به في السجن مع الأشغال الشاقة لأنه سرق أرغفة معدودة

لإطعام أبناء أخته اليتامى، وهرب من السجن وحاول إعادة بناء حياته على أساس شريف، محسنًا إلى «البؤساء»، محاولاً رفع الظلم عن هذه الطبقة من الضعفاء.

وقد اتخذ «فيكتور هوجو» من بطله رمزًا لشعب «باريس» في تصديه للمظالم ونضاله في سبيل كرامته، وكأنه يعني بـ«جان فالجان» باريس، ويعني بها البؤساء والمقهورين في العالم بأسره.

ولم ينس «فيكتور»، «فانتين» التي سحقها الظلم، والشرطي «جافير» ممثل الانصياع المطلق للواجب.

والخلاصة - كما يقول الدكتور جبور عبد النور:

إن رواية البؤساء عمل أدبي جليل، يعد شاهدًا على عصر من النزاع السياسي والتنوع الاجتماعي، الذي يحدث في عصور مختلفة متقاربة كانت أو متباعدة.

حافظ وتعريب الرواية

جلبت ترجمة رواية «البؤساء» المتاعب لحافظ إبراهيم؛ فهو عند الكثيرين لا يعرف الفرنسية ولا أية لغة أخرى غير العربية.

وهو عند البعض الآخر يعرف الفرنسية معرفة ضئيلة لا يمكن أن يصل من خلالها إلى عالم الترجمة، وأنه في كتبه التي قيل إنه ترجمها كان يُعاوَن من العارفين بها.

وعلى سبيل المثال ترجمَ الشاعر «خليل مطران» كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» للفرنسي الشهير «بول» واشترك حافظ في تعريبه مع خليل مطران، واتفق الجميع على أن النصيب الأوفى في فهم النص الفرنسي كان لـ«خليل» وأن مشاركة «حافظ» كانت لا تتعدى عملية التعريب والصياغة.

وأن رواية «البؤساء» قد دَلَّه عليها أستاذه الإمام «محمد عبده» بل وسانده في فهم النص الفرنسي وساعده في تعريبها بعد أن كان الإمام قد ألمَّ باللغة الفرنسية أثناء وجوده في فرنسا مع جمال الدين الأفغاني.

ويرى الدكتور/ محمد مندور أنه لابُدَّ قد استعان أيضًا بغير الأستاذ الإمام ممن يجيدون الفرنسية.

إنَّ الذي قصد إليه «حافظ» لم يكن ترجمة «البؤساء» وإنما تعريبًا لأجزاء منها، وإن أصَرَّ هو - رحمه الله - على اعتبارها ترجمة كترجمة «ابن المقفع» لـ«كليلة ودمنة».

وفي ذلك يروي الأستاذ «المازني» حادثة طريفة جرت له مع «حافظ» وكان «المازني» ما يزال طالبًا في مدرسة المعلمين العليا، وقد أوفده أحد أصدقائه إلى «حافظ» في أمر قضاهُ لهُ، يستطردُ «المازني» فيقول:

«يظهرُ أن حافظًا استصغرني في نظره، فكان يخاطبني بلفظ «ياشاطر» فساءني ذلك، وقلتُ له قبل أن أنصرف شاكرًا: لقد قرأت ترجمتك «البؤساء»، ولا شك أنه كتاب نفيس إذا نظرنا إلى اللغة، ولكن لا شك أيضًا أنه ليس بترجمة بالمعنى الصحيح، وأحرى به أن يُسمَّى تلخيصًا.

فغضب «حافظ» وقال لي: «تعيبُ «البؤساء» يا ولد!

فقلت - وقد سرني أن أغضبته: دع الولدَ والبنت فإنك لا تخاطب «جرسون المقهى» وأنا لم أعِب «البؤساء» وإنما عبتُ الترجمة لا لغتها، فسكتَ قليلًا وهو يدخن الشيشة ثم قال: أجِبْلَكْ شيشة؟!

وكتب أنيس منصور في الأهرام 1982/8/8:

يوم أن أعادَ حافظ صياغة رواية «البؤساء» حملها إلى العقاد وكان شديد الفزع، فهو لا يعرف أية لغة أجنبية، ولا يعرف بالضبط ما الذي سيقوله النقاد.

ولكن الأستاذ «العقاد» طيَّب خاطره وقال له: لقد اجتمع بؤساء كثيرون في هذه الرواية: أنتَ، والمؤلف، واللغة العربية، وكل ناقد يريد أن يقول الحق... لقد جنيت على كل هؤلاء يا سيدي! فضحك «حافظ» قائلًا: هل ترى أن أنتحرَ في بيتك؟!

فأجابه «العقاد»: بل أفضل أن تعيش نادمًا على هذه الجريمة الأدبية.

شهادة أنطون الجميل

بينما يحدثنا «أنطون الجميل» صديق «حافظ» في مقال له عن الجزء الثاني من «البؤساء» عن الجهد الذي بذله في ترجمته فيقول: ترجمَ حافظ هذا الجزء كما

ينظمُ قصيدة، فنسق عباراته كما ينسق قوافيه، وتخيَّر مفردات نثره بما اشتهر عنه في تخيُّر مفردات شعره، ولكمْ لقيتُهُ وهو ينشد لي صفحةً من «البؤساء» كما ينشد مقطعًا من شِعْره الجزل، إذا رجعنا إلى حكم حافظ نفسه قد نجده يؤثر بعض صفحات ترجمته على بعض مقاطع ديوانه، لأن تلك قد كلفتْهُ قدرَ ما كلفتهُ هذه، ومعزَّةُ الشيء كما يقولون بقدر ما يكلَّف وكذلك قيمته.

ويرى الدكتور محمد مندور أن هذا الحرصَ الشديد على تجويد العبارة قد ساقَ حافظًا أحيانًا إلى التكلف والاصطناع، فلم يراع دائمًا مقتضى الحال حتى نراه يُجْري الحوار على لسان الخدم بلغة عويصة متكلفة على النحو الذي ينطبق عليه نقد أحد أشخاص الرواية ذاتها عندما «يصف أولئك الذين إذا ذكروا الزوج قالوا: البعل، والزوجة قالوا: الحليلة، والملك قالوا: رب التاج والصولجان. لكنه من جهة أخرى استطاع في أحيان كثيرة أن يُلْبِسَ تصوير «فيكتور هوجو» ثوبًا عربيًا جميلا مثل قوله في وصف الندم:

«والفكر كالبحر فمن استطاع أن يَرُدَّ البحرَ عن العود إلى شاطئه استطاع أن يردَّ الفكر عن العود إلى مناطه، وعلةُ البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المدُّ والجزْر، وعلة الفكر يعرفها المذنب وهي الندم، فسبحان من يثير النفسَ كما يثيرُ البحرَ المحيطَ».

وأيًا ما يكونُ الحكم على هذه الترجمة أو التعريف، فإنَّ «البؤساء» لحافظ إبراهيم تحتفظ بلا ريب بفضل خصائص صياغتها، وروعة أخيلتها ومعانيها وثوبها العربي الجميل بقيمة أدبية خالدة.

الرافعي ورواية البؤساء

ولعل هذا ما جعل شيخ الأدباء «مصطفى صادق الرافعي» يثني على رواية البؤساء وعلى «ترجمة» أو قل «تعريب» حافظ إبراهيم لها بقوله:

«إنك في «البؤساء» ترى مع الترجمة صنعةً غير الترجمة، وكأنما ألَّف «هوجو» هذا الكتاب مرَّةً، وألفه «حافظ» «مرتين» إذ ينقل عن الفرنسية؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل، ثم يحكمُ الصنعة فيما يفتن، ثم يبالغ فيما يحْكم؛ فأنت في كتابه في لغة الترجمة، ثم في بيان اللغة، ثم في قوة البيان، وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لأحقُّ به في العربية من مؤلفه، وجاء وما يستطيعُ أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه.

وتلك طريقة في الكتابة لا يُستعان عليها إلا بالأدب الغزير، والذوق الناضج والبيان المطبوع؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكدّ في تخير اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة؛ فلقد ينفقُ الكاتبُ وقتًا في عمرَ الليل ليُخْرِجَ من آخره سطرًا في نور الفجر.

وبهذا الصنيع جاءت صفحات «البؤساء» على قِلتها كشباب الهوَى؛ لكل يوم منه فجره وشمسه، ولكل ليلة قمرها ونجومها».

وأعتقد أن شهادَة «الرافعي» رحمه الله كافية في بيان الأسلوب البلاغي البياني الذي تفوق فيه حافظ إبراهيم.

وفي الختام، لم يكن لي من عمل في هذه الرواية، سوى هذه الدراسة، مع توضيح بعض المعاني التي لم يفسرها شاعر النيل حافظ إبراهيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط وفق قواعد الكتابة العربية، والله أسأل أن يزيل عن عالمنا العربي الإسلامي عوامل «البؤس والشقاء» الذي ألمَّ به في هذه المرحلة الحرجة، فهو على كل شيء قدير.

أبو أحمد

عادل عبد المنعم أبو العباس

القاهرة- مصر 1435 هـ- 2014م